الفصل الثامن والتسعون

الحياة الاقتصادية

وأقصد بالحياة الاقتصادية كل ما يتعلق بمفهوم الاقتصاد من معنى ، ما يتعلق منه بالحكومة أو ما يتعلق منه بالشعب . وما يتعلق منه بالتجارة والمال ، أو ما يتعلق منه بالزراعة أو بالصناعة والحرف .

واقتصاد أية أمة ، حاصل أمور عديدة : الجو ، من حر وبرد ، ومن مطر وجفاف ، ومن ثروات طبيعية ، تستنبط من الماء أو التربة ، ومن نشاط وجهد وظروف اجتماعية ، هي من حاصل تأثير المحيط في أهله .

وأدخل هنا في الحياة الاقتصادية ما يشمل التجارة بنوعيها تجارة البر وتجارة البحر ، وما يشمل الزراعة ، ثم ما يشمل الحرف والصناعات .

وتشمل التجارة : الاتجار داخل جزيرة العرب ، أي تعامل أبناء بلاد العرب بعضهم مع بعض ، والاتجار مع الخارج ، أي مع الحكومات الغريبة مثل الهند وحكومات افريقيا والفرس والروم .

لقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون في عالم التجارة . والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التي لم ينظر العربي اليها والى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص . بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة . ونظر الى التاجر نظرة تقدير وتجلة ، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف ، فيها من الحيل والخداع واللعب على الناس ما في أية حرفة أخرى

وفيها عمل وجهد على نحو ما نجد في الزراعة أو في الصناعة . ولكنها نظرة واجتهاد الى الحياة ، وظروف طبيعية ، جعلت العرب تجاراً في الغالب ، فشرفوا التجارة على غيرها من الحرف ، وقدموها عليها في المنازل والدرجات . وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة في الإسلام كذلك . وأشير الى شرفها وسمو منزلتها في كتب الحديث ، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة في نفوس الناس .

والتاجر الذي يبيع ويشتري . ومن المجاز التاجر الحاذق بالأمر ، لما تحتاجه التجارة من ذكاء وحذق في مساومات البيع والشراء . وذكر علماء اللغة ان العرب تسمي بائع الخمر تاجراً ، وان أصل التاجر عندهم الخمّار ، يخصونه من بين التجار[1] . والتجارة صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشتري للربح[2] . و (التاجر) هو (مكر) في لغة المسند ، و (تمكرو) في الآشورية[3] .

كان الملوك تجاراً يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبد تجاراً يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسباً فاحشاً ، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجاراً كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم في المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية في نظر تجار ذلك اليوم . لبيعه في الداخل أو نقله الى بلاد الشأم أو العراق لتصريفه في أسواق تلك الجهات .

وفي اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل ، وهي من اللغات العالمية الغنية في هذه المادة . ويلاحظ بصورة عامة ان اللهجات السامية غنية كلها تقريباً بالألفاظ المستعملة في البيع والشراء والتعامل والتجارة ، وفيها مترادفات كثيرة في هذا الباب. وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق الساميين عموماً بالتجارة وافتتانهم بها ، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم . والتأريخ يؤيد ذلك ، فترى الساميين عموماً ، وهم أنشط من غيرهم ، يتنقلون من مكان الى مكان طمعاً في ربح ، وركضاً وراء تجارة ، وهم من أحذق الناس يومئذ في التحكم في الأسعار وفي التعامل وفي البيع والشراء .

---

١ تاج العروس (٣/٦٦) ، (تجر) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٣) .
٣ Grohmann, S. 124.

وفي القرآن الكريم لفظة (تجارة) و (تجارتهم) ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتجار والتجارة والمعيشة والكسب . كما أن فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت . وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع و « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1] . وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين . بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب ، والتأجيل والتعجيل ، وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر ، الذي يعي الناحية المادية من ربح وخسارة وكسب وتوفير ، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً ، لأنها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي .

والتجارة أنواع كثيرة ، تشمل كل أنواع البيع والشراء . والتاجر ، هو الذي يتاجر في الأسواق . غير أن منهم من تخصص في نوع خاص من أنواع التجارة مثل بيع الحبوب ، وقد يتخصص ببيع نوع خاص من الحبوب ، مثل الحنطة ، فيقال له : (حنّاط) وحرفته (الحناطة)[2] . وقد يتخصص ببيع وشراء (البز) ، فيقال له (البزاز) وحرفته (البزازة)[3] . وقد يتخصص ببيع (الزيت) ، فيقال لبائعه (الزيات) وللذي يعتصره (الزيات) كذلك[4] .

وتكون التجارة بالمقايضة ، وهي المعاوضة ، اذا عارض التاجر أو أي شخص متاعاً بمتاع آخر ، وبادل سلعة بسلعة أخرى[5] . وهي الطريقة القديمة في الاتجار ، قبل ان يتعامل بالذهب والفضة وزناً ، في تقييم قيم الأشياء ، وقبل ان تعرف النقود ، التي ولدت من التعامل بالذهب والفضة . وطريقة المقايضة أو المبادلة أو المعاوضة ، لا تزال طريقة قائمة معروفة ، تتبعها الدول ، في تصريف منتجاتها بمنتوجات أخرى عوضاً عن النقد ، لحاجتها الى النقد والى تصريف حاصلاتها

---

١ سورة المطففين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ تاج العروس (١٢١/٢) ، (حنط) .
٣ ارشاد الساري (١٣/٤) ، تاج العروس (٨/٤) ، (بزز) .
٤ تاج العروس (٥٤٧/١) ، ، (زيت) .
٥ تاج العروس (٨١/٥) ، (قيض) .

الفائضة عليها . وقد اتبع الجاهليون هذه الطريقة ، فكانوا يبادلون الجلود بسلع أخرى ، ويبادلون التمر بالحنطة[1] . وقد اتبع الجاهليون طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً كذلك ، كما تعاملوا بالنقود .

ويتبين لنا من دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير انه كان لأهل مكة عرف وضعوه في أصول التجارة يمكن ان نسميه (قانون التجارة) بالنسبة لأهل تلك المدينة ، تكوّن من تجاربهم في الاتجار ومن تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومن تجاربهم وتعاملهم مع الخارج ، مثل تعاملهم مع الفرس والروم والحبش ، حيث أخذوا من هؤلاء الأعاجم النظم والقواعد التجارية التي كانوا يسيرون عليها والتي لم تكن معروفة عند أهل مكة ، بسبب اختلاف المحيط وطريقة التعامل التجاري بين الدول . فتجار مكة وأصحاب المال ، هم الذين وضعوا أصول التعامل في التجارة فيما بينهم ،وهم الذين كوّنوا بأنفسهم قوانينهم ، إذ لا حكومة منظمة لهم تضع التشريع وتقوم بالتنفيذ على نحو ما كان في العربية الجنوبية أو عند الفرس أو الروم .

ويتبين لنا من دراسة الموارد المذكورة كذلك ، أن أهل مكة كانوا خبراء في أصول تنمية الأموال وفي كيفية استثمارها واستغلالها . فكانت لهم مرابحات وكانت لهم شراكات وتعامل ومراسلات مع غيرهم من أصحاب المال في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان لهم ربا ، للحاجة ، أي للشدة والعسر والضيق . أو للتعامل بالمال المقترض بالربا لانمائه في مشاريع اقتصادية تعود بالفائدة على المقترض أكثر من فائدة الربا التي يدفعها للمرابي ،حتى ظهر في مكة أناس كانوا يعدّون من كبار الأغنياء بالنسبة لأهل تلك المدينة وبالنسبة لجزيرة العرب في ذلك الوقت.

وفي المسند ألفاظ كثيرة ذات معاني تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك والعقود وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا قوماً تجاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ، ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون في الداخل والخارج ،يقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما يقيمون الأسواق في بلادهم في المواسم أو في أيام معينة من الاسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم

---

١ تقويم البلدان (٩٩) .

بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضة بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

والتجارة هي (ش ت ي ط) (شتيط) في لغة قتبان . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص القتبانية ، في أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتنظيم الجباية ، وفي كيفية جباية (المكس) عن البضائع التي تباع في الأسواق، وفي العقوبات التي تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع جباية السوق . وقد حددت القواعد التي يسمح بموجبها للغرباء في الاتجار بأسواق مملكة قتبان ، وفي كيفية اتجار القتبانيين في الأسواق الخارجية .

وفي جملة هذه النصوص نص أصدره الملك (شهر هلال بن يدع اب) (شهر هلل بن يدع اب) في تنظيم التجارة وفي كيفية الاتجار . وقد نشر على شكل اعلان أو مرسوم ملكي موجه من الملك الى التجار من أهل قتبان ، والى الغرباء الوافدين عليها للاتجار ، وقد كتب ونشر ليطلع عليه الناس كما تفعل الدول في الوقت الحاضر .

وقد وردت في النص جملة مصطلحات وألفاظ ، لها معان تجارية ، مثل (يشط) أي يتاجر ، و (يعرب) من (عرب) بمعنى يقدم عربوناً ويضع عربوناً[1] . ومن أصل (عرب) العرابة والعربون في العربية الشمالية[2] . و (خدر) بمعنى أقام ومقيم ومقيمين ونازلين . وقد ورد في المعجمات اللغوية ان من معاني هذه اللفظة الاقامة بالمكان[3] . ويُقصد بذلك النازلون في مكانٍ ما . ولما كان هذا النص أمراً وقانوناً في تنظيم التجارة ، فقد حدد ما جاء فيه من أوامر ، بالنسبة الى سكان المدينة (تمنع) وخارجها ، وكذلك مملكة قتبان ، والمقيمين بها ، والوافدين من خارج قتبان للعمل بالأسواق والاتجار . ولذلك وردت هذه الجملة: « ومن يتجر تجارة بتمنع وبخارج تمنع ، فعليه ان يقدم عربوناً الى تمنع ، وان يكون مقيماً بشمر ، وإن آثر قتبان محلاً لاتجاره ، وأراد ان يتجول ليشتري ، فعليه أن يشتري من شمر ... » . فحدد بذلك كيفية الاتجار وحق الاتجار والموضع

---

١ راجع السطر الثامن من النص : REP. EPIGR. 4337.

٢ القاموس (١٠٢/١) ، تاج العروس (٣٣٣/٣ وما بعدها) ، « الكويت » ، (١٧٠/٣ وما بعدها) ، (خدر) .

٣ القاموس (١٨/٢) .

الذي يجب ان يشترى منه بالنسبة الى تجار قتبان والى التجار الغرباء عن تمنع .

وقد حدد هذا القانون حقوق الـ (خدر) ، أي التاجر النـــازل والمقيم في إمارة (شمر) ، والذي يتجول فيذهب الى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها، ويذهب الى قبائلها لبيع ما عنده اليها أو لشراء ما يحتاج اليه من تجارة منهـــا ، وعليه أن يفعل ذلك ، ولكنه ملزم بأخبار (عهر شمر) ، بذلك ، وذلك لتسوية المشكلات والحسابات التي تتـــولد من المعاملات التجارية . وقد تطرق النص الى الأضرار التي قد تصيب الأجانب أو القتبانيين ، والى احقاق الحقوق ، ولهـــذا وضع الملك هذا الأمر . وجاءت في آخر النص هذة الجملة : « وخمسي ورقم » أي « خمسين ورق » . وقـــد سقطت كلمات قبلها ، فلم يعرف المراد من ذكر هذا الرقم ، أقصد وضع تأمينات بهذا القدر المذكور ، أم قصـــد جزاءً يفرض على المخالفين ، أو غير ذلك .

وهذه القوانين القتبانية، هي من أقدم وأشهر القوانين التي وصلت الينا باللهجات العربية القديمة في كيفية تنظيم الاتجار والتعامل في السوق وفي تعيين حقوق الحكومة ونصيبها من الأرباح المتأتية من التجارة.وهي دليل ناطق على مقدار عناية القتبانيين بأمور التجارة بالنسبة لذلك الوقت .

التجارة البرية :

والتجارة البرية ، هي عمـاد تجارة الجاهليين ، ولا سيما الجاهليين القريبين من الاسلام وسندهم الأول في رخائهـــم وفي كسب ثرواتهم . وعمـــاد هذه التجارة وسندها القوافل . فقـد كان الملوك وسادات القبائـــل والأشراف يرسلون تجارتهم بقوافل الى مواضع اتجارهم ، فتبيع ما تحمل وتشتري ما تحتاج اليه من تجارة ، لتبيعها في مكان آخر بثمن غال ؛ وبكسب أصحاب هذه القوافل كسباً حسناً من هذا الاتجار .

والتجارة البرية : إما تجارة داخلية ، أي داخل قطر من أقطار جزيرة العرب وبين أقطارها ، وإما تجارة خارجية ، كانت تتم مـــع بلاد الشأم والعراق ، أي خارج حدود جزيرة العرب في اصطلاح الجغرافيين المسلمين .

وقد أشير في التوراة وفي الكتابات الآشوريـــة والمؤلفات اليونانية واللاتينية إلى

اتجار العرب مع الخارج ، كما أشير إلى اتجار الآشوريين والفرس والرومان والروم مع العرب ، وإلى طمع الدول الكبرى لعالم ذلك الوقت في جزيرة العرب ، نظراً لما كانوا يسمعونه عن ثرائها وغناها ، ولموقعها الجغرافي المهم الذي يقع بين افريقية وآسية ، ويهيمن على المياه الدافئة ذات المنافع الكبيرة بالنسبة للتجارة العالمية في كل وقت وزمان .

والعربية الجنوبية في كتب اليونان والرومان وفي التوراة، بلاد غنية ذات خيرات وثروات وتجارات وأموال ، قوافلها تخترق جزيرة العرب الى بلاد الشأم والعراق، وفي بلادها الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، تتاجر مع الخارج فتربح بتجارتها هذه كثيراً ، وبذلك اكتنزت المعادن الثمينة المذكورة والأموال النفيسة حتى صارت من أغنى شعوب جزيرة العرب .

وفي (المزامير) أن (شبا) ستعطي (الذهب) لملك العبرانيين في جملة الشعوب التي ستخضع له ، تقدم له الجزية[1] . وورد في (أرميا) أن (شبا) كانت ترسل (اللبان) الى اسرائيل[2] . وقد ذكروا في سفر (حزقيال) في جملة كبار التجار . كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب[3] . وأشير في (أيوب) الى قوافل (شبا) التي كانت تسير نحو الشمال حتى تبلغ اسرائيل[4] .

وفي هذه الاشارات دلالة على الصلات المستمرة التي كانت بين العبرانيين والسبئيين ، وعلى أن السبئيين كانوا هم الذين يذهبون الى العبرانيين ، يحملون اليهم الذهب والأحجار الكريمة والطيب واللبان . فتبيع قوافلهم ما عندها في أسواق فلسطين ، ثم تعود حاملة ما تحتاج اليه من حاصلات بلاد الشأم ومصر وفلسطين .

ويظهر من سفر (يوئيل) ان السبئيين كانوا يشترون السبي من فلسطين ، من (بني يهوذا) ، حيث جاء فيه تهديد لأهل صور وصيدا بأن رب اسرائيل سينتقم منهم جزاء اعتدائهم على الاسرائيليين ونهبهم ذهبهم وفضتهم . وسيجعلهم عبيداً يباعون في الأسواق إلى السبئيين : « وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا

---

١ المزامير ، المزمور التاني والسبعون ، الآية ١٥ .
٢ أرمياء ، الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .
٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها .
٤ أيوب ، الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

تبيعونهم للسبئيين ، لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم » . مما يدل على انهم كانوا من المشترين للرقيق ، ينقلونه الى بلادهم للاستفادة منهم في مختلف نواحي الحياة، يتخذون النساء الجميلات زوجات لهم ، ويتخذون البشعات والقويات للخدمة ، ويعهدون للرجال بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى ذكاء ومهارة وفن واتقان،وبأعمال أخرى صناعية وزراعية ، وأمثال ذلك .

وقد أشير الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة في بعض الكتابات الآشورية ، فذكر (تغلاتبليزر) الثالث مثلاً أنه أخذ الجزية من السبئيين،أخذها ذهباً وفضة وإبلاً : جمالاً ونوقاً ولباناً وبخوراً من جميع الأنواع ، كما ذكر (سرجون) أنه أخذ الجزية من (يثع أمر) ملك سبأ ، أخذها ذهباً وخيلاً وجمالاً ومن مصنوعات الجبال[1] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن هذا الموضوع في أثناء حديثي عن صلات الآشوريين مع العرب ، وعندي أن هذه الجزية التي دفعت الى الآشوريين ، قد تكون جزية بالمعنى المفهوم من اللفظة ، أي نتيجة قهر وإكراه وخضوع لحكم الآشوريين وهزيمة لحقت بالسبئيين في حرب أو حروب وقعت مع الآشوريين ، وقد تكون بمعنى ضريبة دفعها السبئيون الى الآشوريين في مقابل السماح لهم بالاتجار في أسواق الحكومة الآشورية،فهي ضرائب يدفعها التجار أو تدفعها الحكومات الى الحكومات الأخرى في مقابل السماح لها بالاتجار معها ، وفتح أبواب أسواقها لرعاياها ، للبيع والشراء .

وفي كتب اليونان واللاتين تأييد واتفاق تام مع ما جاء في التوراة عن ثراء السبئيين ، وعن امتلاكهم الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقد بالغت في ذلك مبالغة أخرجتها من حدود الواقع الى الخيال . فنسبوا لهم استعمال الأثاث المصنوع من الذهب والأواني المستعملة من الذهب والفضة ، وغير ذلك مما أخرج وصفهم من حدود المعقول وأدخله في عالم القصص والأساطير .

وقد بالغ (سترابو) في وصف ثراء السبئيين بسبب اتجارهم بنوع من العطور الزكية ، دعاها باسم (اللاريم) Larimum وبالمواد الأخرى النفيسة ، وذكر انه كانت « لديهم كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة ، كالأسرّة والموائد

---

١ Hastings, p. 842.

الصغيرة ، والآنية والكؤوس ، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة »[1] .

وقد كانت هذه الشهرة من أهم العوامل التي دفعت بالقيصر (أغسطس) إلى ارسال حملته المشهورة المخفقة على اليمن . وهاك ما كتبه المؤرخ (بلينيوس) Pliny عن ثروة العرب وعن تجارتهم ، لترى ما كان ماثلاً في مخيلة الرومان واليونان عن العرب . قال : « ومن الغرابة ان نقول : إن نصف هذه القبائل التي تفوق الحصر ، يشتغل بالتجارة ، أو يعيش على النهب وقطع الطرق . والعرب أغنى أمم العالم طراً ، لتدفق الثروة من روما وبارثيا اليهم ، وتكدسها بين أيديهم . فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم . ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك »[2] .

وقد أشار (بلينيوس) إلى ان المعينيين كانوا يملكون أرضاً غنية خصبة ، يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وان السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأرضين المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل . كما كانوا ينتجون العطور[3] .

وقد عدّ (سترابو) العسل في جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وذكر انه كثير جداً فيها[4] .

وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع بلاد الشأم ، فيرسلون اليها قوافلهم مارة بالحجاز الى أسواق بلاد الشأم بالطرق البرية التي لا يزال الناس يسلكونها حتى اليوم مع شيء من التحوير والتغيير . وقد عثر على كتابة دوّنها كبيران شكرا فيها الإلّه (عثتر) ، لأنه نجاهما مع قافلتهما من الحرب التي كانت قد وقعت بين (مصر) وبين (مذي) ، فوصلا معها سالمين الى مدينة (قرنو) ، أي

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٢) ، (١٩٥٢) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي (ج ١ م ٣ ص ١٢٩) .
٣ مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الاول : المجلد الثالث) ، (١٩٥٤ م) (ص ١٣٩) .
٤ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .

عاصمة (معين) . وقد ورد أنهما كانا يتاجران مع (مصر) و (االشر)، أي (آشور) ، و (عـــبر نهرن) (عبر نهران)[1] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذه الكتابة تشير الى حرب وقعت فيما بين السنة (٢٢٠) والسنة (٢٠٥) قبل الميلاد . أي في عهد (البطالمة) ، وأن تلك الحرب كانت بين (الميديين) الذين أشير اليهم بـ (مذى) وبين (البطالمة) الذين أشير اليهم بـ (مصر)، لأنهم حكام مصر ، أو الحرب التي وقعت فيما بين (السلوقيين) وبين (البطالمة)، والتي أدت الى الاستيلاء على (غزة) سنة (٢١٧) قبل الميلاد . وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع هذه المدينة التي تعتبر الميناء الذي يؤدي بالتجار الى موانىء مصر[2] .

وقد كانت (البتراء) أي (سلع) Sela ، أهم عقدة طرق يمر بها المعينيون والسبئيون . ومنها يتجه طريق نحو البحر الميت ، لمن يريد الاتجار مع بلاد الشأم وطريق آخر ينتهي بغزة ، لمن يريد الاتجار مع هذا الميناء المهم ، الذي بقي العرب يتاجرون معه الى أيام الرسول . وقد كان (هاشم بن عبد مناف) ممن يتـــاجر معه ، وبه توفي كما تذكر الأخبار .

وقد كان الذهب في رأس السلع التي حملها تجار العرب إلى الآشوريين وحكومات العراق وبلاد الشأم،وفي التوراة ذكر للذهب الذي كان يجلبه العرب إلى العبرانيين، وقد أشرت إلى ما ذكره الكتبة اليونان عن الذهب عند العـرب ، ولعلهم كانوا يحملون الفضة اليهم كذلك . فقد كانت للفضة مناجم في جزيرة العرب. وقد ورد في أخبار أهل الأخبار ان (أبا سفيان) كان قد حمل فضة كثيرة معه لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد ؛ فلا يستبعد تصدير العرب للفضة لبيعها في تلك الأسواق في ذلك العهد .

أما منتوجات الحديد أو مصنوعات معادن أخرى ؛ فلا نجد لها ذكراً في قائمة السلع التي كان يحملها التجار العرب إلى الخارج ، بل يظهـر ان أهـــل جزيرة العرب ، كانوا هم الذين يستوردون مصنوعات المعادن من الخارج إلى جزيرتهم ،

---

١ REP. EPIGR. 3022, J. Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, I, (1956), p. 211.

٢ Die Araber, I, S. 74. f.

فنجد في الأخبار انهم كانوا يفتخرون بالسيوف الهندوانية ، أي المصنوعة بالهند ، أو المعمولة من حديد هندي ، أو المعمولة على طراز سيوف الهنـــد . وقد عثر المنقبون على مصنوعات معدنية ، تبين لديهم انها من مصنوعات الرومان والروم ، مما يدل على انها قد استوردت من الخارج ، أو ان العمال والمشتغلين في الصناعات المعدنية ، كانوا قد رأوا تلك النماذج فعملوا على محاكاتها وصنع أمثالها . ونظراً لتأخر الصناعة عند الجاهليين ، وإلى نظرتهم الازدرائية اليهـا واحتقارهم لمن كان يشتغل بها ؛ فلا يعقل ان تجد مصنوعاتهم المعدنية مكانة لها بين المنتوجات المماثلة لها في الأسواق الخارجية . لهذا اقتصرت صادرات جزيرة العرب إلى الخارج على المواد الخام ، المتيسرة في بلاد العرب ، أو المستوردة من افريقية أو من الهنـــد ومن وراء بلاد الهند ، وأهمها العطور والطيب والجلود .

وكان (الطيب) ، من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون . تاجروا بتصديره الى خارج العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ومصر والعراق وتاجروا بـه في الداخل أي في العربية الجنوبية ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقـــد عرف (الطيب) بـ (طب) (طيب) في لغـــة المسند[1] . ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وافريقية ، ويصدر الى مصر وأسواق بلاد الشأم والعراق .

والبخور من المواد الثمينـــة ذات السعر العالي بالنسبة لتجـارة ذلك الوقت . والبخور ما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة[2] . وقد كانوا يحرقون البخـــور في المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، كما كانوا يبخرون الضيوف ، ويطيبون ثيابهم به . ومنه (القسط) . وهو عود هندي يتبخر به ، يجاء به من الهند ، يجعل في البخور والدواء . ويوجد قسط عربـي . وورد (قسط اظفار) ، قيل هو ضرب من الطيب ، وقيل من العود[3] . وعندي أنه (قسط ظفار) ، نسبة الى (ظفار) قرب مرباط بالعربية الجنوبية ، وتعرف بـ (ظفار الساحل) ، نسب اليها العود الذي يتبخر به لأنه يجلب اليها من الهنـد ، ومنها الى اليمن ، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وإنما تجلب من الهند[4] . وقـد أشير

---

١ Müller, Biblische Studien, III, S. 85.
٢ تاج العروس (٣/٣٢) ، (بخر) .
٣ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، (قسط) .
٤ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .

الى (العود) في الحديث . ورد : عليكم بالعود الهندي . وقيل هو القسط البحري[1].

و (المسك) من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[2] ، ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية . وكانت العرب تسميه (المشموم) . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة معربة ،عربت من أصل فارسي هو (مشك)[3] . ورد في الحديث أطيب الطيب المسك . واستعملوه في الطب ، عالجوا به جملة أمراض[4] .

والعنبر من المواد التي تذكر بعد المسك في العربية ، وللأخباريين آراء في أصل العنبر ، وأجوده ما يجلب من شحر عمان[5] .

و (المرّ) ، وهو (امرر) في المسند ، من المـــواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها ، وقد أقبـــل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية ، فاستعمل في المعابد وفي التحنيط ، واستعمل في جملة الأجزاء التي تدخل في الدهن المقدس[6] . وذكر علماء اللغة ان (المـــر) كالصبر ، دواء سمي به لمرارته . وقد عالجوا به جملة أمراض[7] .

و (الصبر) عصارة شجر مرّ ، وأجوده (السقطرى) ، ويعرف أيضاً بالصبارة[8] .

وأما (القرفة) ، فإنها من المواد الثمينة كذلك ، وتنبت في جزيرة (سيلان) بصورة خاصة . وتقشر ويستعمل قشرها ، أو يستعمل دهنهـا الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان[9] . ويرى علماء اللغة ان (القرفة) ضرب من (الدار الصيني)، وهو أنواع ، منه (الدار صيني) الحقيقي ، ومنه المعروف بـ (قرفة القرنفل)[10] .

---

١ تاج العروس (٢/٤٣٧) ، (عود) .
٢ سورة المطففين ، الآية ٢٦ .
٣ تاج العروس (٧/١٧٦) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (٧/١٧٦ وما بعدها) ، (مسك) .
٥ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (العنبر) ، الاشارة الى محاسن التجارة . (ص ١٩ وما بعدهـا) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢٦) ، Hastings, p. 639. -
٧ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .
٨ تاج العروس (٣/٣٢٥) ، (صبر) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٢) ، Hastings, p. 786.
١٠ تاج العروس (٦/٢١٩) ، (قرف) .

و (القرنفل) من المواد المستوردة من الهند وما وراءها . وقد استعملوه طيباً، كما عالجوا به ، وطيبوا به الأكل . وقد أشير اليه في شعر لأمرىء القيس،حيث أشار الى رائحته الطيبة ، وأشير اليه في شعر لعمرو بن كلثوم[1] .

وقد ذكر (الكافور) في القرآن الكريم : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً »[2] . وفي ذلك دلالة على معرفة العرب به ووقوف قريش عليه واستعمالها له . وذكر أن الكافور ، طيب ، أو أخلاط من الطيب تركب من كافور الطلع ، وقيل يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين[3] .

وأما (قصب (الذريرة) ، فهو (قليمتن) ، أي (القليمة) في المسند، وهو (قصب الطيب)[4] . و (الذرور) عطر يجاء به من الهند ، كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لاحرامه بذريرة[5] .

و (السليخة) نوع من الـ Cassia ، أي قشرة تؤخذ من شجرة القرفة ، أو من أشجارها[6] . وذكر علماء اللغة أن السليخة عطر ، وكأنه قشر منسلخ ، ودهن ثمر البان قبل أن يربب بأفاويه الطيب ، فإذا ربب بالمسك والطيب ثم اعتصر ، فهو منشوش . أي اختلط الدهن بروائح الطيب[7] .

و (الكندر) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به[8] . و (اللبان) ، مشهور في العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وافريقية ، وهو ضرب من الصمغ ، وذكر انه الكندر . وانه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجيرة ،

---

١ قال عمرو بن كلثوم :
كأن المسك نكهته بفيها وريح قرنفل والياسمينا
تاج العروس (٨/٧٩) ، (القرنفل) .
٢ سورة الدهر ، الآية ٥ .
٣ تاج العروس (٣/٥٢٧) ، (كفر) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٦) ، Hastings, p. 786.
٥ تاج العروس (٣/٢٢٣) ، (ذر) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٢) ، Hastings, p. 119.
٧ تاج العروس (٢/٢٦٢) ، (سلخ) .
٨ تاج العروس (٣/٥٢٩) ، (الكندر) .

وتجفيف العصير . وقد استخدم في المعابد . وأشير في سفري (أشعياء)[1] ، و (أرمياء)[2] ، إلى ان العبرانيين كانوا يستوردونه من (شبا) ، أي من أرض (سبأ) ، وأشهره من شحر عمان . وأحسنه ما يجمع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه[3] .

ولفظة (الكندر) من أصل أعجمي هو Cunduru ، وهو من الألفاظ (السنسكريتية) . فيظهر ان الكلمة دخلت العربية من الهند[4] .

وقد كانت في المعابد مخازن تجمع فيها أصناف الطيب والمر والبخور ، وذلك للتصدير والبيع . وقد كانت تقوم بمهمة وسيط في البيع والشراء ، تبيع ما تخزنه وتحصل بذلك على عمولة تستفيد منها وتدر عليها أرباحاً طائلة جداً ، تثري منها. وهكذا نجد المعابد وهي تكاد تحتكر تلك المواد وتنفرد ببيعها إلى التجار[5] .

ويقسم الطيب إلى ذكور الطيب وإلى إناثه . وذكور الطيب ما يصلح للرجال دون النساء نحو المسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذريرة . وعرف هذا النوع بـ (ذكارة الطيب) . والمؤنث طيب النساء ، كالخلوق والزعفران[6] . وورد ان (الغالية) ، طيب عرف في زمن (معاوية) ، وذلك ان (عبدالله ابن جعفر) دخل عليه ورائحة الطيب تفوح منه ، فقال له ما طيبك يا عبدالله ؟ فقال : مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان . فقال معاوية : غالية أي ذات ثمن غال . وقيل أول من سماها بذلك (سليمان بن عبد الملك) ، وانما سميت لأنها أخلاط تغلي على النار مع بعضها[7] . والخلوق من طيب النساء،يتخذ من الزعفران وغيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة . وقد نهي عنه ، لأنه من طيب النساء[8].

---

١ أشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ .
٢ أرمياء ، الاصحاح ٦ ، الآية ٢ .
٣ تاج العروس (٣٢٩/٩) ، (لبن) ، الاشارة الى محاسن التجارة (ص ٢٢) .
٤ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 633.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 6.
٦ اللسان (٣١٠/٤) ، (ذكر) .
٧ تاج العروس (٢٧٠/١٠) ، (غلى) .
٨ تاج العروس (٣٣٧/٦) ، (خلق) .

قوافل سبأ :

وقد أشير في التوراة الى قوافل سبأ ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغربية الى فلسطين ، فتبيع ما تحمله من سلع هناك . وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية ، حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين . ولم تشر التوراة الى وجود قوافل بحرية وسفن للسبئيين في البحر الأحمر ، تتاجر مع فلسطين ومصر ، ولم نعثر على كتابات بالمسند تشير اليها ، لذلك ، فليس في استطاعتنا التحدث عن التجارة البحرية للسبئيين مع بلاد الشأم .

سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق ، فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها . وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الجنوبية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، والى الموانىء والمرافىء التي تتاجر مع إفريقية والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها ، وحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية ، وبلطت بعض مواضع منها لتقاوم السيول والأمطار ، وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ولا تزال آثار تلك الطرق باقية ، وقد كتب عنها السياح .

واتجهت نحو السيطرة على الطرق البرية المؤدية الى بلاد الشأم . ولهذه الطرق أهمية كبيرة بالنسبة الى اليمن والعربية الجنوبية . وهي طرق موازية للطريق البحرية الممتدة في البحر الأحمر ، ولها شأن خطير في التجارة العالمية . وقد أسست مواضع حراسة ، لحراسة القوافل من قطاع الطرق ومن تحرش القبائل بها ، ولعل أهل يثرب الذين يرجعون نسبهم الى اليمن ، هم من الرجال الذين غرسهم السبئيون في هذا المكان لحماية قوافلهم التي تذهب الى بلاد الشأم .

ووجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانىء الخليج العربي كذلك ، فاستخدموا الطريق الممتدة من نجران الى (السليل) ومن هناك الى الخليج والعراق[1] .

---

١ Rhodokanakis, Altsab. Texte., S. 9, W. H. Irvine Shakespear, in the Geogr. Journal, LIX., No. 5, (1922), p. 321.

وتوجد آثار طرق جاهلية مبلطة تبليطاً حسناً وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد أنشيء بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة ، وذلك باستعمال الآلات بمهارة فائقة في قطع الصخور لانشاء هذه الممرات . وقد زفّت بعض هذه الطرق وغطي بطبقة من الاسفلت ، ووضعت عليها صُوى ترشد المارة ، ولما كانت الطرق الطويلة المبلطة تبليطاً فنياً تحتاج إلى نفقات طائلة وإلى أيد عاملة كثيرة وإلى حكومة كبيرة غنية ، لم يكن من الممكن يومئذ فتح طرق طويلة ممهدة تخترق جزيرة العرب ، على شكل الطرق التي أنشأها الرومان في انبراطوريتهم ، لسير القوات العسكرية عليها والتجارات فاقتصر على إقامة الطرق الضرورية القصيرة التي توصل المدن والقرى بالمواضع المهمة [1] .

وقد كان اعتماد التجار على الحيوانات ولا سيما الجمل في نقل تجارتهم . أما العربات فلم تكن مستخدمة في أغراض تجارية في جزيرة العرب . ولم ترد إشارات اليها في نصوص المسند ، ولا في النصوص الجاهلية الأخرى ، ولا في أخبار أهل الأخبار . وقد ظل اعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الإسلامية الى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، ففيه أخذ في تمهيد الطرق لسير وسائل النقل الحديثة عليها ، فأخذت تنافس تلك الوسائل القديمة ، وستقضي عليها في المستقبل بالبداهة .

والتجارة هي التي نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية ، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن . وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة في العربية الشمالية كما هو معروف. فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة ، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التي عثر عليها بعض العلماء في أماكن متعددة من خرائب اليمن ، وقد يعثر على عدد منها وعلى كتابات أخرى . قد يكون من بينها كتابات بلغات أعجمية في المستقبل بعد قيام بعثات الحفر بالتنقيب هناك .

---

١ Sabaeica, I, p. 78.